

الفصل الثالث

العودة إلى المنهج السلفي

(المعقول الصريح لا يخالف المعقول الصحيح).

ابن تيمية

ابن تيمية

في تاريخ العظماء وحدة تتجلى في الأشباه والنظائر من آثار العمل العظيم كلما تكرر. ومن هنا تشاكل ابن حنبل وابن تيمية وتشابه ابن تيمية وابن عبد الوهاب.

ومن الوحدة كانت كل كلمة تقال في واحد من الثلاثة مقولة صالحة في الآخرين. ولئن متاز ابن عبد الوهاب بأنه أعاد النام إلى «التوحيد» بالحرب. . إن ابن تيمية كان نخبة مدرسة ابن حنبل، والقدة لابن عبد الوهاب في كل ما عمله أو علمه. جاء مجيء همسة من السماء في أسمع أمة قال عنها شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق في كتابه (فيلسوف العرب أو المعلم الثاني): (كانت الدولة الإسلامية في هم مما أصابها من أثر الخراب المغولي، فأصبحت الفرصة سانحة لتوجيه الشعب إلى إصلاح إسلامي بالرجوع إلى السنة التي كان الخروج عنها مدعاة لغضب الله). ولد أحمد تقي الدين أبو العباس بن شهاب الدين عبد الحلیم بحران وهاجر به أبوه أمام زحوف التتار إلى دمشق حيث صار أبوه شيخ المدرسة السكرية في الحديث، وبها كان سكنه حتى مات سنة ٦٨٢، وفي المدرسة تولى أحمد وأصبحت دمشق موطنه. فعاش فيها حتى مات سجيناً في قلعها سنة ٧٢٨ من أجل آرائه.

أما جده فالشيخ محمد الدين أبو البركات (٦٥٢) صاحب المؤلفات في المذهب. ومنها كتاب «مسودة الأصول» التي زاد فيها ابنه ثم حفيده. فهي أول مؤلف جماعي في الفقه الإسلامي لأسرة ألف فيها الجد والأب والحفيد - وهي - بعد - مدرسة زهد.

والورع معلم من معالم مذهب ابن حنبل. يقول ابن عقيل: (.. فأما أصحاب أحمد فإنه قل فيهم من تعلق بطرف من العلم إلا يخرجهم ذلك إلى التعبد والزهادة لغلبة الخير على القوم).

وكان في دمشق مدارس أخرى للحنبلة منها المدرسة العمرية التي أنشأها أبو عمر بن قدامة الأخ الأكبر لموفق الدين (صاحب المغني والمقنع) وقد لازم عمر صلاح الدين في حروبه . ولموفق الدين أثر كبير في فقه ابن تيمية .

وكان العصر عصر غارات التتار والصليبيين - والمسلمون بحاجة إلى شجاعة النفس بالجهاد ، وإعمال الفكر والاجتهاد .

أما شجاعة النفس ففيها يقول أمير من أمراء دمشق :

قال لي الشيخ ابن تيمية يوم اللقاء وقد تراءى الجمعان : يا فلان ، أوقفتني موقف الموت ! قال فسقتني إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المعقد عليهم ، ثم قلت له : يا سيدى ، هذا موقف الموت وهذا هو العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة فدونك وما تريده . فرفع طرفه وشخص ببصره إلى السماء وحرك شفثيه طويلاً ، ثم انبعث وأقدم على القتال ، ثم طال القتال والالتحام بيننا وانحاز التتار إلى جبل صغير عصموا أنفسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة ، وكان آخر النهار - فإذا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوت تحريضاً على القتال وتخويفاً للناس من الفرار ، فقلت يا سيدى قد فتح الله ونصر وهاهم أولاء التتار محصورون بهذا السفح ، وفي الغداة إن شاء الله يؤخذون عن آخرهم : فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وحاربهم كذلك بالجبل حتى جلوا عنه وتم الفتح المبين .

وأما عن الفكر والاجتهاد فرمما أحسن إجمال أمره قوله عن نفسه :

(ربما طالعت في الآية نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم) . فين هاتين النهايتين من البطولة والورع تمت واكتتمت عقلية «مجاهد» . في كل ميدان للإسلام فيه شأن ، وطريقة عالم يعمل قدر ما يعلم . وما كان أعظم ما علم وأجل ما عمل .

» « «

يقول ابن دقيق العيد : إنه كان (رجلاً سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء) ويقول ابن سيد الناس : (لم ترعين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه) يخرج عن مذهبه الحنبلى ، ويخرج عند لزوم على جميع المذاهب مادام يؤيده القرآن والسنة ، فإذا الأمة الإسلامية التي قاومه جهالها في حياته من أجل بعض فتاواه - تهرع في القرن الرابع عشر إلى هذه الفتاوى ذاتها لإصلاح حالها . فهو قد سبقها إلى العلم الصحيح والمصلحة الشرعية بقرون سبعة .

أما جهاده للنهي عن المنكر فكان مثلاً فريداً في البأس ، يضربه عالم يسير إلى السجن باختياره مثني وثلاث .

وأما عن العقيدة والفقه فقد أعاد إلى المذهب السلفى صولجانه . وأمسث مؤلفاته - وهى نحو

خمسائة - منهاً للمجددين في الفقه والإصلاح الديني والاجتماعي في كل عصر جاء بعده .
وكان كثير من فساد العقائد ناجماً عن الأعياب أدياء التصوف في عصره وأضاليل لباطنية
وعباد الأصنام و «هيئة المتفعين» بها ، ممن يمدون بالأسباب إلى السلطان .

وهو عالم سلفي لا يرضى الدنيا في دينه . وعلى هذا طالت حربه لأصحاب البدع طول حياته .
وشجع شجاعة العالم الذي ترغبه أمته في محنتها .

شكا إليه رجل من ظلم الأمير له فنهذ إلى الأمير مع المظلوم يطلب حقه .

قال الأمير متكبهاً : كنت أريد أن أجيء إليك لأنك عابد زاهد .

قال ابن تيمية : (موسى كان خيراً مني وفرعون كان خيراً منك ، وكان موسى يجيء كل يوم إلى

باب فرعون ثلاث مرات يعرض عليه الإيمان) .

وفي سنة ٦٩٩ والتار يحيطون بدمشق دار على الخمارات مع أصحابه يغلقونها ويريقون محتوياتها
ويغزرون أصحابها ، ويذكرون الناس أنهم في حرب .

وفي سنة ٧٠٠ خف إلى مصر يستحث السلطان لانقاذ الشام . وخرج من دمشق إلى الجبل

يحارب أعوان التار على أبناء جنسهم .

وفي سنة ٧٠٢ كان قارص الحرب في موقعة شقحب . وفي سنة ٧٠٤ خرج مع صحبه فأزالوا

صخرة كان الناس يقدمون لها الندور ، وفي سنة ٧٠٥ خرج مع السلطان يبددون الفرق الإسلامية

التي كانت تربيص بالمسلمين الدوائر ، وحارب أكلة الثعابين ومقتحمي النيران من أصحاب

الطرق . وراسل القساوسة يهدي للإسلام .

وفي سنة ٦٩٨ أصدر فتواه لأهل سماء في الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه : إن علينا أن

نؤمن بها كما نزلت بها عبارات القرآن والسنة دون تأويلها ، مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه .

والله تعالى يقول (ليس كمثله شيء) فإذا قال تعالى : (يد الله فوق أيديهم) فمعناها هو

الذي أراد الله من صريح النص دون تجسيد لذاته . ولا تشبيه لما يخلق . ولا للخلق بها ، وهذا لم

تحتاج الصحابة إلى تأويل النص ، لأنهم فهموه مع رسول الله ﷺ كما يفهم القرآن . وفي ذلك قول

مالك في معنى (الرحمن على العرش استوى) «الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة»

وأمر من سألته من أحاديث الصفات بقوله :

(أمض الحديث كما ورد بلا كيف ولا تحديد إلا بما جاءت به الآثار) .

وطالبه القضاة بالدفاع عن فتاواه فحضر وداف .

ثم أعادوا الكرة في سنة ٧٠٥ فاتهموه بأنه يقول : إن الله يجلس على العرش ويشار إليه

بالإشارات الحسية : يقصدون أن الله يجلس كما يجلس الناس ، وأنه يتكلم بحرف وصوت .

وطلبه السلطان من دمشق إلى القاهرة فحضر ، ولم يأذن له القضاة بالدفاع . وسجنوه عاماً وبعض العام .

فلما خرج رفض العودة إلى دمشق ، وبقي في القاهرة يعلم الناس ، ويكذب الحشوية المشيين والمجسدين ، ويفند أكاذيب الكاذبين من أتباع بعض الطرق كمن يأكلون الشعابن ويدعون أن سمها لا يصيبهم ، أو يدخلون ناراً ويخرجون منها بسلام . واشتد على المتصوفة المتفلسفين كابن عري وأقوالهم في الوحدة مع الله وحلوله فيهم وفنائهم فيه ! وله في ذلك رسالة مشهورة إلى النصر المنجى - كما أفتى بتحريم زيارة القبور والتوجه للأولياء بالدعاء والتوسل .

واسودت الدنيا في وجوه المتنفعين بهذه الأعمال . فشكوه إلى السلطان ، فخبره بين أن يقيم بمصر أو بالإسكندرية بشرط (السكوت) وبين الحبس فاختر الحبس على الحرية المشروطة ، فحبس بالإسكندرية عامين حتى سنة ٧٠٩ .

ثم أطلق سراحه سلطان جديد . وحكمه فيمن حكوا عليه ، فأعلن عفوهم وفيهم قاضي القضاة . فكان إصلاحاً من عالم لجاهل ومن مظلوم لظالم .

وفي سنة ٧١٢ برح مصر إلى دمشق يعلم الناس ويفتيهم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

• • •

كشفت فضائح العصر للفقهاء الفحل عن « مهمة حياته » فلم يذهب بددا تناوش الحشوين والباطنيين معه ، وانطلق يعلن في كل مقام أنه ليس بين الله وبين عباده وسائط إلا الرسل ، ومن قال بغير ذلك مشرك كافر يستتاب وإلا قتل ، لأنه يعمل لله ندا ، ونصوص القرآن تكفر من يتخذ الملائكة والنبين أرباباً فكيف بغيرهم ؟ وإذا كان لرجل أن يقول لآخر : ادع لي - فهذا مشروع ، أما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول : ادع لنا أو اسأل لنا ربك .

ولا تشد الرحال إلى الموالد أو زيارة الأضرحة أو تقام القباب الضخمة على رفات الموتى وتتخذ مساجد ، ومن جهل ما أمره الله به لم يكن من أوليائه وإن كان صاحب عبادة كالرهبان وغيرهم .

وكذلك من علم ولم يعمل بعلمه . بل هو قد يكون فاسقاً أو فاجراً ، ومن تعبد بالصمت الطويل الذي يترك الواجب أو بالقيام في الشمس أو العرى أو الجوع والعطش فهو ضال مبتدع .

وعرف بالأولياء تعريف المفسرين بأنهم : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

وقال : إن (أهل المكاشفات والمحاطبات يصيبون تارة ويخطئون تارة أخرى كأهل النظر والاستدلال في مدار الاجتهاد . ولو كان أحد يأتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسنة لكان مستغنياً عن الرسول في بعض دينه وهذا من أقوال المارقين) .

أما ادعاء العصمة للأولياء فأصدق قول فيه قوله (ذلك الخليط من الحكمة الذى يجمع بين خرافات الفرس ووثنية الإغريق وعقائد اليهود الذين حرفوا دينهم من قبل) .
وأما إظهار الصوفية أنفسهم فى لباس خاص (فبجارية لمسوح الرهبان) .
(وهدى نبينا أحب إلينا . وكان ﷺ يلبس القطن وغيره) .

وتظهر زراية ابن تيمية على الإفراط فى الحساسية التى تعترى بعضاً عند سماع القرآن فى قوله :
لم يكن فى الصحابة من هذا حاله وليس بيننا وبين هؤلاء الذين يصفقون عند سماع القرآن إلا أن يُقرأ على أحدهم وهو على حائط . فإن خر فهو ساقط .

أما عن الأبدال والنجباء والبقاء أو « الكادرة » الذى يصطنعه المتصوفة فقال : (هذه الأسماء الدائرة على السنة كثير من العامة والناسك مثل الغوث الذى بمكة والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلاثة - - فهى ليست فى كتاب الله ولا هى مأثورة عن النبي ﷺ لا بإسناد صحيح ولا ضعيف يحتمل إلا لفظ الأبدال فقد روى فيهم حديث شامى منقطع لإسناد عن على كرم الله وجهه . . .) .

□ □ □

أما فقهه ففيه يقول الحافظ الذهبي : (فاق الناس فى معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم مذهباً بل ما يقوم دليله عنده) .

والمذهب عند ابن تيمية أن (قول القائل - لا أتقيد بواحد بعينه دون الباقيين - أحسن ، بل هو الصواب من القولين . وإن أراد أنى لا أتقيد بها كلها بل أخالفها فهو مخطئ فى الغالب قطعاً ، ولكن تنازع الناس : هل يخرج عنها فى بعض المسائل ؟ على قولين . .) .

لهذا ينفرد ابن تيمية بآراء فيها رحمة بالناس . . . مثل قوله : إن المرأة إذا لم يمكنها الاغتسال فى البيت أو شق عليها النزول إلى الحمام وتكرره - لها أن تيمم وتصل .

وقوله : إن من أكل فى رمضان معتقداً أنه فى ليل فبان أنه فى نهار فلا قضاء عليه .

وقوله : إن تارك الصلاة عمداً لا قضاء عليه ، بل عليه الإكثار من النوافل رجاء غفران الله له : أى القيام بالتوبة الصحيحة .

وقوله : إن الحلف بالطلاق لا يقع به طلاق ، وإنما تجب به كفارة يمين .

وقوله : إن الطلاق الثلاث بفم واحد يقع طلقة واحدة رجعية ، فصدر مرسوم فى سنة ٧١٨ بمنعه من الإفتاء فقال : لا يسعنى كتمان العلم ، فحبس فى القلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً وعاد يفتى ، وأعيد استجوابه وحبس فى القلعة فظل على رأيه .

وهذان القولان الأخيران إصلاحان تاريخيان أصلحت بهما مصر قوانينها فى النصف الأول من

القرن الحالى .

وهو يفرض على أن شروط الزواج أحق الشروط بالوفاء : أن للزوجة أن تشرط على زوجها في عقد الزواج شروطها . وينسخ الزواج إذا أخل بشروطها . وأن الوفاء لها بشروطها أولى من الوفاء بشروطه ؛ لأنه يملك أن يحل عقد الزواج بالطلاق .

وهذا رأى الأخير صحيحة من صيحات إصلاح جديد تتردد الآن .

ويقض على أن المسلمين عند شروطهم إلا ما أحل حراماً أو حرم حلالاً ، حرية الشروط ؛ لأن (مقاصد العقلاء إذا دخلت في العقد وكانت من الصلاح الذى هو المقصود لم تذهب عفواً ولم تهدر رأساً) وأنه (قد تنفيذ الشروط مالا يفيد الإطلاق بل ما يخالف الإطلاق) .

وكل مشغل بتقنين الفقه الإسلامى في العصر الحالى يجد كفايته في النصوص . مفردة أو مجتمعة ، وفي المعانى الكلية المستنبطة من مجموع النصوص ، ويعتمد على أن «المسلمين عند شروطهم» .

أوكما قال ابن تيمية : (الشارع لا يحظر على الإنسان إلا ما فيه فساد راجع أو محض ، فإذا لم يكن فيه فساد أو كان فساد مغموراً بالمصلحة لا يحظره أبداً) .

ويضع ابن تيمية الأساس للأخذ بالنصوص وهو :

١ - أن المفعول الصريح لا يناقض المنقول الصحيح . فالنقل والعقل لا يتعارضان بحال ؛ وإنما العيب عيب الذين يقل إمامهم بالمنقول أو يخطئون في المعقول .

٢ - عند مظنة التعارض يهتم العقل بالتقصير ؛ لأن العقل ليس معصوماً ؛ وإنما الشارع معصوم .

يقول : (إن من كان متبحراً في الأدلة الشرعية أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام بالنصوص والأقيسة) .

ويقول : (وبالحملة فما عرفت حديثاً صحيحاً يخالف حديثاً صحيحاً كما أن المفعول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح ، بل متى رأيت قياساً يخالف أثراً فلا بد من ضعف أحدهما ، لكن التمييز بين صحيح القياس وفاسده مما يحق الكثير منه على أفاضل العلماء فضلاً على من هو دونهم) (١) .

(١) يقول الشافعى في الرسالة : (. . . لم نجد عنه ، صلى الله عليه وسلم شيئاً مختلفاً ، فكشفناه إلا وجدنا له وجهاً يحتمل أن يكون مختلفاً وأن يكون داخلًا في الوجوه التى وصفت لك أو نجد الدلالة على الثابت منه دون غيره بشيئ الحديث ، فلا يكون الحديثان الذان نسبًا إلى الخلاف متكافئين فنصير إلى الأثبت من الحديثين أو يكون على الأثبت منها دلالة من كتاب الله وسنة نبيه . ولم نجد عنه حديثين مختلفين إلا ولهما مخرج أو على أحدهما دلالة بأحد ما وصفت . . .)

ويقول : (وقد تأملت من هذا الباب ما شاء الله فرأيت الصحابة أفقه الأمة وأعلمها وقد بينت فيها كبت أن المنقول فيها عن الصحابة - هو أصح الأقوال قضاء وقياساً وعليه يدل الكتاب والسنة ، وعليه يدل القياس الجلي . وكل قول سوى ذلك تناقض في القياس مخالف للنص ، وما شاء الله من المسائل لم أجد أجود الأقوال فيها إلا الأقوال المنسوبة إلى الصحابة . وإلى ساعتى هذه ما علمت قولاً قاله الصحابة ولم يختلفوا فيه إلا كان القياس معه . لكن العلم بصحيح قياس وفاسده من أجل العلوم ؛ وإنما يعرف ذلك من كان خبيراً بأسرار الشرع ومقاصده .

وما اشتملت عليه شريعة الإسلام من المحاسن يفوق التعداد . . .)

ذلك تفسير قول الشافعى فى رسالة الأصول (وأما أن نخالف حديثاً عن رسول الله ثابتاً عنه فأرجو ألا يؤخذ علينا ذلك إن شاء الله . وليس ذلك لأحد ، ولكن قد يجهل الرجل السنة فيكون له قول يخالفها لا أنه عمد خلافها . وقد يغفل الرجل ويخطئ في التأويل) .

* * *

اشتهر عند المستشرقين كتاب ابن تيمية « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية »^(١) لمعالجة هذا الكتاب لأنظمة الإدارة والحكم وندرة التأليف فيها .

والكتاب من أصغر الكتب حجماً وأكبرها وفاء بأكبر الموضوعات فى أوضح عبارة أو إشارة . يقول فى أول فصل من الكتاب :

(دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن أبى سفيان فقال : السلام عليك أيها الأجير . فقالوا : قل السلام عليك أيها الأمير فقال : السلام عليك أيها الأجير . . . قال معاوية دعوا أبا مسلم ؛ فإنه أعلم بما يقول . قال أبو مسلم : « إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها . . .)

ويختتم بفصلين فى المشورة ووجوب اتخاذ الإمارة .

يقول عن المشورة : قال الله تعالى (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) وقد أثنى على المؤمنين بذلك فى قوله : (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) .

(١) وفى هذا الكتاب حقه وبين قيمته فى الإصلاح السياسى والاجتماعى الإسلامى لتشرق المعاصر لاوت وكتبه بسانة فى النظريات الاجتماعية والسياسية لثق الدين بن تيمية طبعة نفهده الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٣٥ .

ويقول ابن تيمية . في الإمارة (وأولو الأمر صنفان الأمراء والعلماء . وهم الذين إذا صنعوا صلح الناس) .

وفي وجوب اتخاذها يقول : (روى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم) فأوجب تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع ؛ لأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم . ويقال : (ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان) والتجربة تين ذلك ؛ ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون : (لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان) وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : (الدين النصيحة . . . الدين النصيحة . . . قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسله ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربةً ؛ وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها . . .

ويحتم بقوله : (فعلى كل واحد الاجتهاد في إثبات القرآن والحديث . . . مستعيناً بالله في ذلك) ثم الدنيا تحدم الدين كما قال معاذ بن جبل رضى الله عنه (يا ابن آدم ، أنت محتاج لنصيكتك من الدنيا وأنت إلى نصيكتك من الآخرة أحوج ، فإن بدأت بنصيكتك من الآخرة فرب نصيكتك من الدنيا فانتظمتها انتظاماً . وإن بدأت بنصيكتك من الدنيا فاتكت نصيكتك من الآخرة وأنت من الدنيا على خطر) . ودليل ذلك ما رواه الترمذى عن النبي ﷺ أنه قال : (من أصبح والآخرة أكبر همه جمع له شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن أصبح والدنيا أكبر همه فرق الله عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له . . .) .

ابن قيم الجوزية (٧٥١)

تحمل المدرسة الجوزية لقب أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (٥٩٧) . بناها ابنه محيى الدين لتدريس مذهب الإمام أحمد ، فخلدت المذهب وصاحبه ومنشئها ومن تحمل اسمه . وخلد الجميع (ابن القيم) ؛ إذ كان أبوه (قيم المدرسة الجوزية) فلقبه المسلمون «ابن قيم الجوزية» أو «ابن القيم» وكانت عبادته وزهادته جواز المرور لمتابعة منهج أستاذه ابن تيمية .

وكما يقول الحافظ بن حجر (٨٥٢) : (هو الذى هذب كتبه (كتب ابن تيمية) ، ونشر علمه ، وكان ينتصر له فى أغلب أقواله) .

يقول عنه ابن رجب : (واقف فى علوم الإسلام ، فكان عارفاً بالتفسير لا يحاى فيه ، وبأصول الدين وإليه المنتهى . وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط لا يلحق فى ذلك ، وبالفقه وأصوله والعربية وله فيها اليد الطولى . وبعلم الكلام ونظير ذلك ، وعالمًا يعلم السليك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم له فى كل هذه الفنون اليد الطولى) .

بهذه القدم الراسخة فى العلم والورع يتصدى ابن القيم لشرح المنهج السلفى فى العقيدة فهو : الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وكل ما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله لا يردون شيئاً من ذلك . وإن الساعة آتية لا ريب فيها . وإن الله يبعث من فى القبور . وإن اخنة والنار موجودتان الآن . وبأقنات لا تفتيان . وإن الله على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وإن له يدين بلا كيف كما قال (لما خلقت يدي) وقال (يداه مبسوطتان) وإن له عينين بلا كيف . كما قال (تجرى بأعيننا) وإن له وجهاً كما قال (وجه ربك) إلى غير ذلك من الصفات التى ورد بها الكتاب والسنة . كما أثبت السلف لله العلم والسمع والبصر والإرادة والقوة وغيرها كما قال تعالى (أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) وأن الخير والشر لا يكونان إلا بمشيئة الله تعالى ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ومن زعم أن الله شاء لعباده الذين عصوه الخير والطاعة ، وأنهم شاءوا الشر والمعصية ، وعملوا على مشيئتهم فقد زعم أن مشيئة العباد أغلب من مشيئته تعالى .

ولا يشهد السلف على أهل القبلة أن أحداً فى النار لذنب عمله إلا أن يكون فى ذلك حديث . ولا يقررون لأحد أنه فى الجنة إلا أن يكون فى ذلك حديث . ولا يكفرون أحداً بذنب ولا يخرجونه من الإسلام إلا أن يكون فى ذلك حديث . ويفهمون صفات الله تعالى من غير تأويل أو صرف لها عن ظاهرها ولو لم يفهموا معناها لسألوا الرسول عنها كما كانوا يسألونه) .

ويقول : (والعصمة النافعة فى هذا الباب أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير كيف ولا تمثيل . بل ثبت له الأسماء والصفات وتنق عنه مشابهة المخلوق ، فيكون إثباتك متزهاً عن التشبيه ونفيك متزهاً عن التعطيل . فمن نقي حقيقة الاستواء فهو تعطيل . ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو تمثيل) .

فإنه تعالى يقول : (ليس كمثله شيء) ، ويقول : (هل تعلم له سمياً) وابن عباس يفسر السمى بأنه المثل فهاتان آيتان محكمتان تقطعان فى عدم المماثلة والتشبيه والتجسيم ولغنيان العقل عن أى تأويل .

ويقول في أعلام الموقعين : (وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والإسماعيلية والنصيرية من باب التأويل ، فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل)^(١).

ويرى ابن القيم أن أسماء الله هي صفاته ؛ لأنها تدل على معنى زائد على الذات . فهو تعالى عليم سميع بصير قادر : أى له هذه الصفات . ويذكرنا (أن الناس تنازعوا في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد ، بل اتفق الصحابة على كثرتهم والتابعون على ضخامة عداد علمائهم على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها . وإثبات حقائقها . وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بياناً وأن العناية بها أهم لأنها من تمام تحقيق الشهادتين وإثباتها من لوازم التوحيد) . وكتب ابن القيم الكثير في الزهد والتوكل وإخلاص العباد لله ليقدم للناس مسلماً يسير مسلك السلف ، ويواجه مقولات المتصوفين . ودافع عن الاجتهاد والقياس وحمل على التقليد وابتكر الكثير . وما تزال كتبه مراجع أساسية لكل مجتهد عصرى يفكر على أساس الكتاب والسنة .

* * *

ثم حمل أبو القاسم الشاطبي (٧٩٠) مصابيح الفقه الإسلامى في النصف الأخير من القرن . والفقيه رقيب العصر وطيبه . فكان لازماً أن يلتقى الأضواء على آفاته ، فذم البدع التى أفسدت العقائد وخص منها إقامة الزوايا والأربطة للمتصوفة .

فالسلف لم يقيموا رباطاً إلا لمحاربة العدو ، ولم يتعبدوا في الزوايا ، بل عبدوا الله في كل مكان . ولم ينقطعوا عن العمل في الدنيا للآخرة ، ولم يؤثر عن زعماء المتصوفة شيء من ذلك لا الفضيل بن عياض ولا إبراهيم بن أدهم ولا الجنيد أو الخواص أو الحارث المحاسبى أو الشبلى ، وليست الأفكار والأدعية الماثورة التى « يجتمع عليها » البعض بعد الصلاة ، وصارت كالثعائر الدينية ، إلا بدع .

ولم تنقطع البدع بل كانت تتفاقم . واستحب البعض الإخلاد إليها ككل طقس يتجسد فيه معنى فيستغنى عنه بشكله . وتنشأ الشحنة بين المصدقين والمكذبين والجاهلين والمتعلمين . ثم يألف الناس الشذوذ . وللشذوذ عدوى كعدوى المرض .

وعندما يمسى الشذاذ كثرة يفرض الشذوذ نفسه ، وينصب اللؤم شراكه ، ويهتبل النهازون والمنافقون فرص الجهالة والسذاجة والشهوة ، والتعصب والفهم الضيق واستعلاء الطواغيت على جماعة تعمى عن حقائق الدين ، وتنصرف عن الجلد والدأب إلى الرضا بالنصيب الأدنى والانحناء أمام

(١) والفخر الرازى . . من زعماء المفسرين بالتأويل غير الرمزي والباطنى - يقول في خواتيم حياته في كتاب أقسام الذات : (اعلم أنه بعد التوغل في هذه المضائق والتعقق في الكشف عن أسرار هذه الحقائق رأيت أن الأصوب الأصح في هذا الباب طريقة تفرق الكرم وتفراق العظيم وهو ترك التعمق والاستدلال بأقسام السموات والأرض على وجود رب العالمين ثم المبالغة في التعظيم من غير مبالغة في التفاصيل) .

الأقوياء . وبذر قرن الشيطان بين العلماء ، فيصيب عملهم أو خلانقهم أو طرائقهم فيشكلون الذهب . . . ومن ذلك شك الحشويون شيخ الإسلام العز بن عبد السلام (٦٦٠) في القرن السابع وشكوا التاج السبكي (٧٧٠) في القرن الثامن وشكا ابن عطاء ابن تيمية .

ودارت كل الشكاوى على مدار هذه القرون البئسة حول صحة العقيدة أو زيفها حتى كان الشيخ علاء الدين العطار من علماء الأزهر وتلميذ محيي الدين النوى (٦٧٦) يسر متأطاً وثيقة صادرة من القاضي تعلن صحة إيمانه مخافة أن يغتاله الخراصون بتهمة ! وعندما يكفر الجاهلون رجلاً صالحاً ففي مقابله آلاف أو ملايين من الضلال يعتبرونهم صالحين !

وذاث يوم في القرن التاسع وقع شخص في عبارة موهمة وأفتى العلماء بتكفيره لولا أن السلطان طلب إجماعهم لتوقيع العقوبة . فتفتأوا إلى جلال الدين المحلى فجاءوا بالرجل في الحديد وسأل الجلال : ما مستند التكفير ؟ قال صالح البلقيني : قد أفتى أبى شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني (٨٠٥) في مثل هذا بالتكفير . قال الجلال - شارح المهاج - تريد أن تقتل رجلاً مسلماً موحداً يحب الله ورسوله بفتوى أيبك ! حلوا عنه الحديد .

وأخذ الرجل ومضى به إلى العافية !

أما السيوطي (٩١١) فعين قيماً لتكية سعيد السعداء ، فرأى فيها رجالاً فاكهين رفيعين لا قضاة عجاذاً زاهدين ، فهم بتطبيق شرط الواقف عليهم ، وهو الفقيه الحافظ الذى يزهر به القرن العاشر ، فألقوا به - وهو في كامل ثيابه - في الميضة .

وكان طبعياً أن يغزو الصليبيون أرض المسلمين في هذه القرون^(١) وأن تنداح موجات التدرى

(١) في سنة ٤٥٣ هـ انتهر روجار النورماندى فرصة ضعف الناضحين فاستولى على صقلية ، وفي سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) دعا بطرس التامك أهل أوربة جميعاً لاقترحام أرض الإسلام ، وانعقدت المجمع الكنسية (١١٠٨ - ١٠٩٥) وقمت لحرب الصليبية سنة ١٠٩٧ ولما دخلوا بيت المقدس قتلوا سبعين ألفاً من المسلمين . ولما استردوها صلاح الدين بانتصار حطين (٥٨٣) أعطى أهلها الأمان الذى أعطاه عمر أهلها عند فتحها سنة ١٥ وبه وضع العدالة العالمية في الإسلام موضع التطبيق :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسميها وبربها وسائر ممتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من غيرها ولا من حليهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن بعضوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم والنصوص . فمن خرج منهم فهر آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد . وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهلها ؛ فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يعصدهم حصادهم .

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ .

أرض المسلمين إلى بغداد فدمشق^(١) وأن يبعث سلطانهم إلى القاهرة يقول لأهلها :
(فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأى أرض تأويكم فإنها لا تحميكم فما لكم من سيوفنا
خلاص) .

ورد المصريون التتار في عين جالوت سنة ٦٥٨ فحموا الغرب من الشرق كما ردوا الصليبيين في
المتصورة فحموا الشرق من الغرب . وفي سنة ٦٩٠ أجلت جيوشهم الصليبيين من أرض العرب إلى
الأيد ، وانقضى قرن ليغير تيمور لنگ في إحدى صواعقه على بغداد سنة ٧٩٥ . ثم تغلب عليها
الترکان . ثم تحمل محلهم الدولة الصفوية في بغداد سنة ٩٠٥ . وفي سنة ٩٢٣ (١٥١٧) دخل
الأتراك العثمانيون مصر وأرخی الظلام التركي سدوله على أرض العرب .

* * *

في هذا القرن العاشر وفيما بعده بلغت دعاوى الأولياء وكراماتهم منتهى . وظهرت في مؤلفات
متعددة للشيخ عبد الوهاب الشعراني (٩٧٣) - وكان عالماً يدرس الفقه الشافعي بالأزهر -
روايات يرفضها العلم ، ويستخرج منها السذج دلالات على الكرامات تمهد الذهن لرفع التكليف
عن بعض البشر واقتدارهم على الإتيان بالخوارق لفنائهم عن أنفسهم واتحادهم بالذات الإلهية أو
حلولها فيهم .

وعندما يعلم العلماء مالا يسيفه العقل أو يشكك في العقيدة يتزلون بعقول المتعلمين وغير المتعلمين
إلى ضروب شرك لا تحصر :

فعلى مقربة من الجامع الأزهر أطلق العامة اسم «شجرة الحننى» على شجرة في فناء مسجد
الحننى يطوف بها الناس لينالوا حظوظهم من الدنيا .

ومن التكايا واحدة فيها نعل قديمة يتداوى بشرب مائها العشاق ليظفروا بهوهم .
أما دراويشها فكثرت . تطول قلائسهم أو تقصر قدر ما يتصدرون أو يتأخرون في درجات
التكية !

(١) يتحدث ابن الأثير في تاريخه عن سفك التتار وتكلمهم يقول :

(ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتبقى الدنيا ، إلا بأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فإنه يبق على من
اتبعه ويهلك من خالفه . وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ! فإن قوما
خرجوا من أطراف الصين إلى حدود العراق في أقل من سنة . هذا ما لم يسمع بمثله . ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غربة
وماجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء أو أشد . وهؤلاء قد ملكوا أكثر انعمور من الأرض وأحسنه
وأكثره عارة وأملا ، وأعدل أهل الأرض أخلاقا وسيرة في نحو سنة . ولم يبت أحد من البلاد التي يطرقتا إلا وهو خائف يتوقعهم
ويترقب وصولهم .

أما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يجرمون شيئا . فهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها
لا يعرفون نكاحا . بل المرأة يتبها غير واخذ من الرجال فإذا جاء الولد فإنه لا يعرف أباء .

ومن بوابات القاهرة بوابة المتولى دقت بها مسامير يعلق عليها أصحاب الأمانى شعرات أو خيوطاً
تصل أمانيتهم وحاجاتهم بعالم الغيب .

وفي طنطا ودسوق وقنا ، وغيرها من أقاليم مصر - كما في غير مصر - أضرحة تدق عليها
السرَج . وتشد إليها الرجال . وتقدم إليها النذور ، وتنحر الذبائح ، وتولم الولائم ، وتقام حفلات
للمغنين والمغنيات ، والمشددين والمنشادات . ويسمى السامر « مولدا » للولى الميت يعيد فيه التاريخ
فساد الموالد حول أضرحة القديسين من قبل الإسلام ، لكنه لا يعيد نهي العلماء والصلحاء عن
ذلك الفساد ! (١) .

ومن الناس من يمه ميسس من الشيطان أو تكون به جنة ، فينسب إليه بعض العلم الحق أو
يكون خفيف الهامة فينسب إلى همهمته أو هيمنته مالا يعنيه !

ومن الناس من يخرجون الأرواح الشريرة بمؤاخاة أرواح أمانها في العالم الآخر أو العالم السفلى .
ومن الناس سحرة يكيدون للآخرين ، ومنهم من يطلون سحر الساحر وكيد الكائد . ويمكنون
من الإنجاب أو الإخصاب . أو دفع الشر أو إيقاعه بغيرهم .

ومن الناس من نلتمس لديهم الشفاعة أحياء كانوا أم أمواتاً .

ومن الناس من يخينون بالغائب إلى حضرة الطالب .

ومن الناس باعة الأحجار والأوراق والخرز والخرق البالية للرق والتائم والأحجية - والوصفات
الكاذبة .

ومن الناس من لا تحرقهم النار فيحترقوها ولا تلدغهم الثعابين فيأكلوها - وكثر من يدعى
رفع التكليف أو يظلمه غيره فيدعى ذلك له فإذا ارتكب فاحشة فلا بأس عليه !
أما الأدكار فأفانين : فيها الرافصون والصالحون والمنشدون والدفوف والمرتقة من الضلال أو
الجهال .

- ومن الناس من يرزقون بغير سعى . بل إن من الناس من يرزقون بغيرهم .

• • •

وعم الأمر الجلل وطمة . فنزل العلماء ونزلوا حتى أصبحوا عامة . تنفق فيهم هذه الدعاوى ويندر
فيهم من يدركون أن الكرامة درجة فضل في العبادة والسلوك وما عدا ذلك غير إسلامي .
وعندما يفسد العلم والمعلمون تصبح المفسدة هي القاعدة ، ويتسع الخرق على الرافع اتساع
الفرجة بين الحق والضلال ، وتثبت النابتة في أرض سبخة لا تنغيا غير أن ترتق ، فتفوق في ميلها
إلى الدنيا عن الدين ما قاله ابن الجوزي من قرون :

(إن المتقدمين من الصوفية كانوا يخرجون عن أمواهم زهداً فيها فيقصدون الخير وإن غلطوا في

الفعل ، أما المتأخرون منهم فقد مالوا إلى الدنيا . وقد دخل أحد الصوفية على أمير فوعظه فوصله بصلة قبلها فقال الأمير : كلنا صيادون وإنما الشباك تختلف) .

وازدادت الأجيال درجة نحو الحضيض وأصبح الأدعياء أولياء ، والمرترقة علماء يستعين السلطان بهم فيمكن لهم ليحكموا له ! ولكل أمة الحكومة التي تستحقها ، ووسائل العيش التي تستطعمها ، فلا عجب إذا قرأنا من الكلام عن ذلك العصر .

(كان التصوف حالاً فصار كاراً (حرفة) ، وكان احتساباً فصار اكتساباً ، وكان استتاراً فصار اشتهاراً ، وكان اتباعاً للسلف فصار اتباعاً للعلف . وكان عارة للصدور فصار عارة للغرور ، وكان تعبداً فصار تكلفاً ، وكان تخلقاً فصار تلقاً ، وكان سقماً فصار لقماً ، وكان قناعة فصار فجاعة ، وكان تجريداً فصار ثريداً) .

قبس من النور

وفي القرن الثاني عشر أضاء التفكير العلمي بقبس فيه هدى ، فعاجله الجهال بالإطفاء : قص الجبرتي في عجائب الآثار في التراجم والأخبار قصصاً يوضح حقائق العصر في مصر من حوادث رمضان سنة ١١٢٣ = ١٧٤٤ : (أن واعظاً تركياً وفد من بلاد الروم (تركيا) إلى مصر جلس يعظ في جامع المؤيد (بالقرب من الأزهر) وكثر عليه الناس . فذكر ما يفعله أهل مصر بضرائع الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء وتقبيل أعتابهم ، وأن فعل ذلك كفر يجب على الناس تركه . وقد ذكر قول الشعراني في كتابه (الطبقات الكبرى) أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ . فقال : إنه لا يجوز ذلك ولا تطلع عليه الأنبياء فضلاً على الأولياء . وكان فيما قال : إنه لا يجوز بناء القباب على ضرائع الأولياء كما لا يجوز بناء التكايا ويجب هدم ذلك جميعه) .

وألقت إليه الجماهير صغوها وتدخلت الدولة وطرده الوالى بعد أن أفنى بزجره اثنان من

العلماء (١)

(١) وتفصيل ذلك فيما رواه الجبرتي : (قامت لهذا قياة العلماء وأدعياء انعلم ففسدوا عليه من يشوش ويخفت صوته . ولكن الواعظ مضى في طريقه وانتقل هو وأتباعه من القول إلى العمل . وبدأ الصدام بأن خرج الواعظ وأتباعه بعد صلاة التراويح . ووقفوا بالبنايت والأسلحة على (باب زويلة) فهرب الذين يفتنون . ثم قطعوا معلق من جوخ وأمر وهم بقولون أين الأولياء ؟ وهنا أسرع بعض الناس إلى علماء الأزهر ليفتوهم في قول هذا الواعظ . فكذب شيخان من شيوخ الأزهر هما الشيخ أحمد النفرادي و الشيخ أحمد الخليلي بقضان قول هذا الواعظ ويطلبان من الحاكم زجره . وأخذ بعض الدس هذه الفتوى فدفعوها إلى الواعظ في -

ويده القارئ من هذا النبا أمور :

الأول : أن الجماهير كانت أبصر بحقيقة التوحيد من الشيخين اللذين تفاق المسلمون إليهما فأفتيا بزجر مسلم يدافع عن التوحيد وهو أصل الإسلام . وأين من خطيئتهما أُوخذ عليه ابن البلقيني من نحو قرنين ! ليدلنا الجمع بين الخطأين على مقدار تتابع الانحدار .

الثاني : أن الوالي التركي كان حريصاً على مرضاة المفتين الجاهلين لجهالته أو فساد نيته بيسر للأتراك أمر السيطرة على الأمة .

الثالث : أن ذلك الوالي أنجى الواعظ الوافد من أرض الروم من علمين رسميين مع أن هواه معها ضد الواعظ ، لأن الوالي كان تركيائمه .

لكن السماء لا تترك الدين لولاة أميين أو علماء معمعين . لقد قدرت للإسلام أن يتصر وأن تتراءى بشائر النصر في جزيرة العرب ، ليستهل عصر جديد بدعوة جديدة ، في القرن ذاته ، على يد محمد بن عبد الوهاب .

• • •

وحقيق علينا في ختام هذا الباب أن نستصحب بعض مسلمات هي :

١ - إن إسلام الوجه لله لا يكون إلا له وحده ، ولذلك كان النطق بالشهادة مدخله ، وكان شعار المسلم بعد الشهادة : « الله أكبر » لما في الشهادة من إثبات العبادة لله ونفيها عن غيره . وما في الشعار من اعتزاز المسلم بقوة الخالق الكبرى لا الأحكام ولا الأموال ولا الأقوياء ، ولا صوارف الحوادث ، ولا شياطين الوهم أو العجز أو سواها ، لتصيب المسلم بما لا يريده الله . ولأن الناس كلهم تحت سلطانه نظراء ، وأن الفضل للتقوى والعمل الصالح .

جلس وعظه فقال : أنا أريد أن أجعلكم في مجلس القاضي ، واجتمع عليه من الناس قريب من ألف فصار به وسط القاهرة إلى أن دخل بهم بيت القاضي . قال القاضي : اصرفوا هذه الجموع ثم محضرهما ونستمع إلى محادثكم معها ، ولكن أحدنا من الجموع لم ينصرف وقالوا له : ما تقول أنت في هذه الفتوى ؟ فقال : هي باطلة . فطلبوا منه أن يكتب حجة بذلك فقال : إن الوقت قد ضاق والشهود قد خرجوا ، فلتترك ذلك إلى الغد فما سمع الناس من ترجيح القاضي هذا الكلام ضربوه ونحس القاضي ومعه حريمه . ولكن الناس لم يتركوا نائب القاضي حتى كتب لهم الحجة بصواب رأى الواعظ وخطأ رأى الشيخين . وقصد الدرس بعد ذلك يوماً مسجد المؤيد لسباع وأعظمهم ، فلم يجدوه ثم قال قائل منهم : إن القاضي منعه من الوعظ فقام رجل منهم فتبعه الجمع الغفير ، فضى بهم إلى مجلس القاضي وقالوا له : أين شيخنا ؟ فقال لأدري ! فقالوا له : قم وركب معنا إلى الدبران لتكلم الباشا في هذا الأمر وتأنه أن يحضر أحصائنا الذين أفتوا بقتل شيخنا وتباحث معنا : فإن أئبوا دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم : فركب القاضي معهم مكرها ، فها عرف الباشا قصة القوم والواعظ أعطاهم أمراً بأن يحضر الشيخان النفرأوى والخليفة لمجادلة الواعظ ، ولكن أمر الباشا كان لتسكين الفتنة وصرف الناس ، فإنه بعد أن أخذت جماعة الواعظ من الباشا ما يريدون من أمر أصدر الباشا أمراً بإخراج الواعظ من مصر وإسكات هذه الفتنة .

- ومن ثمة قوة المسلم وشجاعته وازدهار جماعته إذا أدركت معنى التوحيد ورفعت شعاره .
- ٢ - إن الإسلام دين علمي ، كتابه ثابت ونصوص سنته مسندة لا خرس فيها ولا تخمين ؛ فإذا أصبح المسلمون ضحايا الباطنيات والخرافات خرجوا على قانونهم وحق العقاب عليهم .
- ٣ - إن المجتمع الإسلامي لم يتدهور إلى منحدر الخرافات إلا بعد قرنين أو نحوهما من إقفال باب الاجتهاد . والقرآن والسنة ينيان عن التقليد واتباع رأى إلا بدليله . ويفيان قداسة الأشياء والآراء والأشخاص^(١) . وإذا جاز تقليد جاهل لعالم في أى تعامل لم يجز ذلك في أمور العقيدة فإنما يجب الإيمان بالتوحيد والرسالة عن فهم لا مجرد تقليد (للفغير) فيها .
- ٤ - إن القرون الخمسة من الخامس الهجرى حتى العاشر شهدت تفهقر المجتمع الإسلامي وازدهار الفكر الباطني وخرافات ليس لها ضابط . في حين شهدت أوربة عصر الإحياء والإعداد للنهضة العلمية والصناعية وكشف العالم الجديد .
- ٥ - إن أُم الغرب في هذه الحقبة لم تأخذ من العالم الإسلامي إلا العلوم ، ولم تلتفت إلى أساطير المتصوفة .

ومن العلوم أخذت المنهج الإسلامي في التجربة والاستخلاص ، فخرجت على منهج الكنيسة الذي يُخضع الكشوف الفكرية والحرية العلمية لمقررات الكنيسة ونظرياتها ، فكان ما اطرحته أُم الغرب من أفكار باطنية للصوفية معادلاً لما اطرحته من أوامر كنسية فيها تعطيل للفكر والعلم .

٦ - إن المستشرقين مبشرون في ثياب علماء ، ومن ذلك ذأبُ المحدثين منهم على الإذاعة بفرق المتصوفة الفلاسفة وإدبارهم عن الإذاعة بالفقه وأصوله . والفقه أعظم ممثل للإسلام وحضارته ، ففي حين أكثروا الكلام عن الجماعة التي يمثلها « ابن عرى » - لم يكن لأئمة الفقه وعظماء الفقهاء كبير أهمية لديهم ، مع أن الحضارة الغربية حضارة تسود القانون ، وأن هؤلاء الفقهاء في سماء ما طاولتها سماء .

إنما أراد هؤلاء المستشرقون أن يعرضوا وجه التصوف الفلسفي ، بما فيه من محاربة للعقل الإنساني ؛ ليعرضوا صورة مرفوضة مكذوبة على أنها صورة عظماء المفكرين في الإسلام ، وليطمسوا

(١) وتقديس الأشياء والأشخاص تراث كنسي ؛ فالبايات منذ القرن الثامن الميلادي في بيزنطة يعلنون أن (الأيقونة إنجيل العالم يرى فيها مالا يقدر على فهمه من الكتاب المقدس) وفي آخر المجمع المسكونية (نيقية ٧٨٧) أعلنت الإمبراطورة إيرين تقديس الأيقونات .

ومن قبلها اعتبر (يوساب القيساري) قسطنطين منشي القسطنطينية هو الحوارى الثالث عشر . والفرس أسوأ ؛ لقد كتب كسرى إلى هرقل لما غلب الروم (من كسرى أعظم الآلهة سيد العالم كله إلى عبده الفاجر عديم الإحساس . . . إنك تقول : إنك تتق في إهلك فلماذا إذن لم تخلص من يدى قيسارية وبيت المقدس والإسكندرية) . ووعده القرآن بنصر الروم فانتصروا في بضع سنين على «سيد الآلهة» .

أويخسوا شأن الحقيقة التي أجمع عليها المعاصرون من علماء الجامعات والتي يعلنها برنارد لويس -
 بين عشرات - حيث يقول عن المنهج العلمي المعاصر في العالم العلمي :
 (إن أوربة في القرون الوسطى تحمل ديناً مزدوجاً لمعاصريها العرب . فهم الوسيلة التي انتقل
 بها إلى أوربة هذا التراث الثمين ، كما تعلمت أوربة من العرب طريقة جديدة للبحث وضعت العقل
 فوق السلطة ، ونادت بوجود البحث المستقل والتجربة . وكان لـهذين الأسامين الفضل الكبير في
 القضاء على العصور الوسطى والإيدان بعصر النهضة) .